غزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

(بقية المقال الثامن عشر)

والآن نستعرض حالة دامية وجيعة، عميقة الألم والفجيعة، يزيدها جرحا وإيلاماً ما يبدو به قائلها من تماسك وتجلد وتجمل.

إنه « يوم الظنون » : يوم يقف الانسان تتجاذبه الدوافع والانفعالات، ويتقاذفه الاقدام والاحجام، وتتراءى له المسارب والطرقات، وهو لا يدرى أيها أولى بالاتباع، بل هو لا يملك أن يدرى، لأنه مسلوب اللب والارادة

فإذا وضعت إلى جانب هذه الصورة شخصية العقاد الجبارة، أمكن أن تدرك مدى الألم العاصف، ومبلغ الفاجعة القاصمة :

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى ... وحملت فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى ... مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعددته ... للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها ... حتى طفت فلقيت مالم أعهد
نارَ الجحيم إلىّ غير ذميمة
وخذى إليك مصارعى فى مرقدى
حيران أنظر فى السماء وفى الثرى
وأذوق طعم الموت غير مُصرَّد(١)
أروَى وأظمأ : عذبُ ما أنا شارب
فى حالتىّ نقيعُ سم الأسود(٢)
وأجيل فى الليل البهيم خواطرى ... لا شارق فيه ولا من مسعد
وتعيدُ لى الذكرات سالف صبوتى
شوهاء كاشرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبُدِّل سمتها ... وبدت بوسم فى السعير مخلد
ياصبوة الأمس التى سعدت بها ... روحى، وليت شقيتها لم يسعد
وعرفت منها وجه أصبح ناضر ... ورشفت منها ثغر ألعس أغيد
سوحت بل جوزيت كيف وعيت لى
بالأمس فيك مراوة الذئب الصدى ؟
سوحت بل جوزيت كيف طويت لى
زرق الأسنة فى الاهاب الأملد
أمسيت حربى فى الظلام وطالما ... جلّيت لى وجه الظلام المربد

(١) صرد الرجل سقاه دون الرى (٢) الثعبان

ورجعت أهرب من لقاك وطالما
ألفيت عندك فى الشدائد مقصدى
ما كان من شيء يزيد تنعمى ... إلا يزيد اليوم فيك تلددى
أواه من أمسى ومن يوم معاً ... والويل من طول التردد فى غدى
أهب الخلود كرامة لبشرى ... أن ليس يومى فى العذاب بسرمد
وأبيع حظى فى الحياة بساعة ... أنسى بها عمرى كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزود ... وأرود روض الحسن غير مقيد

يا للهول ! لكلما قرأت هذه الفطعة سرت رعدة فى مفاصلى، وتشعريرة فى كيانى، وأحسست أمامى بانسان يعتصر نفسه قطرة قطرة فى ألم مبرح كظيم. وهو مع هذا يقظ متنبه لكل وخزة لا ينسى أن صبوة الأمس كانت تخفى فى طياتها ضراوة الذئب الصدى، وأنها كانت تفعمه متعة، لتفعمه بعد ذلك ألماً منشؤه هذه المتعة ذاتها لا سواها

وفى يقينى أن هذا أفجع موقف مر بالشاعر، وقد لقى أياماً كثيرة من أيام الظنون، ولكنها ليست من هذا النوع المسموم؛ وما كان ليستطيع بعده أن يقارفه، وما كان قلبه ليصلح أن يوغل فى الحب هذا الايغال، وأن يأخذه بهذا الجد الصارم الذى يجعل الشك فيه دامياً تنضح منه النفس قطرات

وقد عاد إلى الحديث عن هذه « الظنون » فى قطعة « الحب المريب » من الوزن والقافية والشعور ! فكشف عن حالة نفسية فريدة، صور فيها كيف يحيل الشك متعة اللقاء إلى جحيم لا يعد له جحيم الفقدان، وكيف يقيم الحواجز والأبعاد بين أقرب قريبين فى الوجود :

إنى لفى ألمى بقربك كالذى ... يحنو على ولد مريب المولد
أبدا يغص بقربه وبعده ... ما بين عطف أب وجفوة مبعد
وأراك طوع يدى وألبث حائرا ... بين المحاذر منك والتودد
أرضى وأغضب، لا الرضا ببالغ ... أمن اليقين ولا الغضاب بمهتد
وأظل أسخر من رضاى وغبطتى
وأظل أسخر من عذابى الأنكد
وأشد من برح اللقاء بلية ... تأبى الشقاء عليك غير مفند(١)
باهذه الدنيا أيندم باذل ... يعطى القنوط ندامة المتردد ؟
جودى على بشقوة لم ترجمى ... فيها على ندم إذا لم تسعدى !

ونستمير هنا من حديث العقاد عن « هام » فى « سارة » ما نستعين به على شرح هذه الحالة التى صورها فى نفس صاحبه أبدع تصوير :

(١) غير ملوم عليه

« كانت شكوكا حيرة لا تغسل حيرتها كل أنهار الأرض، وكل حلاوات الحياة . كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا ؛ ولا يزال ينطبق وينطبق ، حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار ؛ وكثيرا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الحرة اللئيمة ، في مداعبة الغريسة قبل التهامها ؛ فينفرج وينفرج وينفرج، حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء، ثم ينطبق دفعة واحدة ، حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ، ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام ، فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال .

« وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفاً بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار ، ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام ... بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام ، فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة في هذا الجانب حتى تبطل البرئة من ذلك الجانب ؛ وهكذا إلى غير نهاية ، وإلى غير راحة ولا استقرار »

***

حتى إذا انتهى من الظن إلى « اليقين » كان يقيناً قاتلا دامياً كالظنون ! . وهي كذلك حالة فريدة من الحالات النفسية التي تجيش بها نفس العقاد الخاصة :

مضى الشك مذموماً وما كان ماضيا
فليتك تحيا عن يقينك راضيا
وجل عن التصديق أنك هاجر
وأنك مهجور وأن لا تلاقيا
فلله ماذا حل بالقلب فارعوى
وآمنت بالحق الذي كنت آبيا
وأمسيت تدري أن للود غاية
وأن زماناً سوف يلقاك خاليا
وعشت ترى حبا لحبك ينقضي وما خلته إلا يد الدهر باقيا
مضى غير مردود كأنك لم تكن بعينيك ترعاه وبالنفس فاديا
ألا لا تذكرني بصدق وددته على جنبات الغيب ما زال خافيا
ألا لا تذكرني يقيناً شريته بأنفس ما يغلو به الشك شاريا
لكذبتُ صدق الهجر لو أن موطناً
من الشك يوماً لم أئب منه خاويا
سل الصبح كم ماريته كلما بدا ولم يبد فيه ذلك الوجه حاليا
سل الليل كم جافيته كلما سجا ولم أرتقب فيه الحبيب الوافيا
سل النيل كم أنكرته كلما جرى ولم ألق فيه ذلك الحسن جاريا
سل الدار كم ناشدتها القرب راجيا
وأرهفت في أنحائها السمع صاغيا
ويخدعني ما اعتدت من طول قربه
فأحسبه عندي وقد بات نائيا
يريب فمي صمتي ليالي لا يرى على خده منه نجيا مناغيا
وتنكرني كفي ليالي لا ترى على خصره منها نطاقا مدانيا
وتطلبه مني جفون تعودت على البعد أن تلقاه في الحي آتيا
ويسألنيه كل يوم وليلة فؤاد يراه حيثما كان رائيا
وأين ؟ ولو أني قدرتُ لما غدا بهالقلب ملتاعاً ولا الجفن شاكيا
وكيف بنسيان الأليف الذي به تذكره الدنيا إذا راح ناسيا
تفقده في كل شيء فما اشتفى فآمن بعد اليأس بالبين عانيا
سل الروض مطلولا . سل القفر صاديا
سل النجم لما غاب . سل البدر ساريا
فانك تدري كيف صدقت باسما إذا بت تدري كيف كذبت باكيا
وأنك لا تخشى ردى الموت بعض ما
خشيت ردى الحق الذي لاح هاديا

وهكذا صار إلى اليقين ، بعد ما طرق كل باب من أبواب الشك ، فعاد منه خاويا ، ولم يصر إليه مع هذا في سهولة ويسر ، ولكنه أنكر الدنيا ومعالمها ، وأنكرته نفسه وجوارحه . ولولا إرادة من حديد ، ما ثاب إلى هذا اليقين الأليم .

***

علام تدل هذه الصور النفسية الفريدة ؟

إنها دليل الثروة في الأحاسيس ، والانفساح في الشعور ، ومظهر الحياة النفسية المهيأة للتأثر ، القابلة للصوغ والانشاء .

وهذا وذلك من ميزات المدرسة الحديثة ، التي تخلص للحياة والاحساس بها ، لا للأوراق وما حفظته منها

وفي ماضي الأدب العربي كله وحاضره كذلك ، لا تجد نظيرا لهذه الصور النفسية ، مع شيوع الأحاسيس التي تستدعيها في كل حب قديم أو حديث

إنما هي النفس المهيأة ، والطبيعة الخصبة ، لا الحادثة التي تخلق القول أو الاحساس

« حلوان »

سيد قطب